

كرسى خاص

لدراسة الأدب المصرى الإسلامى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قرأت مع النبعة نبأ ذلك الاقتراح الجليل الذى تقدم به
صديق الأستاذ العميد الدكتور طه حسين إلى مجلس إدارة
الجامعة المصرية بوجوب إنشاء كرسى خاص للأدب المصرى
الإسلامى ؛ وهو اقتراح لا ريب أن سليله المجلس الجامعى الموقر ،
وسيلقى بلا ريب تأييداً حاراً من كل أولئك الذين يقدرون
تراث التفكير القومى ، ويعتزون به ، ويتوقون إلى بعثه وإحيائه
واستعراض نقائسه ، بعد أن طال الأمد على إغفالها ونسيانها .
ولقد حاولت منذ أعوام أن ألقت النظر إلى وجوب العناية
بدراسة تاريخ مصر الإسلامية وآدابها ، وحاولت جهدى أن
أحث الشباب المتأدب على قراءتها ودراستها ، وكان من بواعث
دهشتى أن الجامعة المصرية الفتية لم تفكر منذ قيامها فى إنشاء
كرسى خاص لتاريخ مصر الإسلامية ، وكرسى آخر لآدابها إلى
جانب ما أنشأته من كراسى خاصة للتاريخ الأوربى والآداب
الفرنسية والانكليزية ؛ فإذا كان الأستاذ العميد يتقدم اليوم
بافتراحه بإنشاء كرسى خاص للأدب المصرى الإسلامى فهو إنما
يعبر فى ذلك عن أمنية قديمة لنا جميعاً ، والجامعة إنما تعمل بتحقيقها
على استدراك نقص فى دائرة الثقافة القومية كان خليقاً أن
يستدرك منذ بعيد

والواقع أن الأدب المصرى الإسلامى لم ينل فى عصرنا
شيئاً من العناية التى هو حقيق بها ، فى حين أن كثيراً من نواحي
الأدب الأخرى من شرقية وغربية تنال من عنايتنا أوفر حظ ؛
وما زال الأدب العربى يقدم إلينا فى صورته العامة ويمثل لنا
نوع خاص فى الأدب العباسى ، وقلنا نغنى بدراسة نواحيه الخاصة ،
بل إن الشباب المتعلم ليرغب اليوم عن الأدب العربى كله ويتجه
شطر الأدب الغربى ، ويعرف من تطورات هذا الأدب ومن
خواصه ما لا يعرف عن تطورات الأدب العربى وخواصه ؛
ويعرف من شخصيات الآداب الأوربية وآثارها ما لا يعرف
عن شخصيات الأدب العربى وآثارها ؛ وإذا كانت ثمة أقلية

من الشباب المتأدب تغنى بالأدب العربى على وجه التعميم ، فهى
قلما تغنى بدراسة شيء من تراث أدبنا المصرى
ونحن نعرف الأسباب التى يرجع إليها هذا الشذوذ فى ثقافتنا
الأدبية وهذا الانصراف عن تراثنا العربى وتراثنا المصرى بنوع
خاص ؛ وهى أسباب سياسية واجتماعية لا نرى محلاً لاستعراضها
فى هذا المقام ؛ بيد أنه يجدر بنا أن نشير هنا إلى سبب مادمى
واضح ، هو أننا لم نوفق حتى اليوم سواء فى برامجنا الدراسية
أو فى بحوثنا الأدبية إلى تقديم الأدب العربى فى مثل تلك الصور
الأنيقة الشائقة التى يقدم بها الأدب الغربى إلى قرائه ؛ ومن ثم
كان انصراف الشباب عن الأدب القومى إلى صنوف متنوعة
من الأدب الغربى يحذف قراءتها كثيراً من المتاع العقلى ، فيؤثرها
بعنايته وفراغه ، ولا يستطيع أن يتذوق بجانبها شيئاً من ذلك
التراث الذى ما زال يغمره القدم وما زال يقدم إليه فى صور
العصور الوسطى

وإذا كنا قد دعونا منذ أعوام إلى العناية بدراسة الأدب
المصرى الإسلامى ، وإذا كنا نرى وجوب التخصص فى دراسة
هذا الأدب ، فليس ذلك فقط لأن البواعث القومية تدعو إلى
مثل ذلك فى كل أمة حية تشعر بماضيها وتعتز بثرائها القومى ،
بل لأن هناك أيضاً من البواعث العلمية والثقافية والتاريخية ما يدعو
إلى اعتبار الأدب المصرى الإسلامى وحدة أدبية مستقلة بين
تراث الأدب العربى العام ، تستحق أن تدرس على حدة ؛ وأن
تدرس خواصها وتطوراتها دراسة خاصة ، كما يدرس الأدب
العباسى أو الأدب الأندلسى

بل نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إن الأدب
المصرى الإسلامى يستأثر بمميزات خاصة قلما توجد فى فرع
آخر من الأدب العربى ؛ نعم إن الأدب العباسى والأدب
الأندلسى ، وأدب الشام ، وأدب شمال إفريقيا يمتاز كل منها بمميزات
الخاصة ، من إقليمية ، واجتماعية وسياسية ، ولكن الأدب
المصرى فضلاً عن احتفاظه بمثل هذه المميزات العامة يمتاز أيضاً
بطابعه المصرى العميق ؛ وتبدو هذه الخاصة واضحة فى كل فنونه
ومراحلها ، وتكاد تغلب على كل خواصه الأخرى ؛ وذلك يرجع
إلى عوامل تاريخية وثقافية خاصة ؛ فقد اتخذت الحضارة
الإسلامية فى مصر طابعها الخاص ؛ وكان قيام الأزهر بالقاهرة
منذ منتصف القرن الرابع عاملاً جديداً فى توكيد هذا الطابع
الخاص للأدب المصرى ؛ ولما انهارت الخلافة العباسية فى المشرق

به في مثل هذا المقام، وهو أثر يستحق أن يدرس لذاته ولاهيمته وإذا كان الأزهر نفسه أحق بأن يدرس تاريخه العلي الحافل؛ فانه من المعقول أيضا أن تكون رسالة الأزهر في ماضيها وحاضرها موضعا للدراسة المستفيضة في استعراض مراحل الأدب المصري الاسلامي التي تعنى الجامعة المصرية بالبحث في إنشاء كرسى خاص لها؛ بل يلوح لنا أن مثل الأزهر في تاريخنا الفكرى يمثل هذه القوة من العوامل الأدبية الخطيرة التي تملى بضرورة إنشاء هذا الكرسى الخاص

وقد كنا نود أن تعنى الجامعة المصرية إلى جانب عنايتها بإنشاء كرسى للأدب المصري الاسلامي بإنشاء كرسى آخر لتاريخ مصر الاسلامية؛ فقد انقضت عصر طويل لم يحظ فيه تاريخنا الاسلامي بما يجب من الدرس والعناية؛ ونحسب أن العوامل السياسية التي كانت تملى من قبل باسدال الستار على ماضيها وعلى ذكرياتنا القومية المجيدة، وبصوير مصر في جميع مراحل تاريخها أمة مستعبدة، لم تذق في ماضيها الطويل الحافل طعم الحرية والاستقلال قد انقضت؛ ونحسب أن الوقت قد حان لأن يعرف الشباب المصري عن تاريخه القومى على الأقل مثلاً يعرف عن تاريخ الأمم الغربية الذى تسخر برامجنا التعليمية في تلقينه للطلاب، وأن يرفع عن تاريخنا ذلك الستار الذى أسدلته يد الأهواء، وأن نستعرض ذكرياتنا القومية المجيدة على ضوء البحث المنزه، فيكون لنا منها غذاء قومى حقيقى، يخلق بالعصر الجديد الذى تستقبله مصر، فالتاريخ القومى في جميع الأمم الحية عنصر هام في تكوين الشعور الوطنى وفي تغذيته وإذكائه

فالمشروع الجليل الذى يتقدم به اليوم الأستاذ العميد إلى مجلس الجامعة المصرية إنما تملى بتحقيقه بواعث علمية وقومية معا؛ وما نحسب المجلس الموقر إلا سيقدر هذه البواعث قدرها وسوف يكون إنشاء الكرسى المنشود حادثاً علمياً في تاريخ الجامعة المصرية، كما أنه سيكون حادثاً قومياً في تاريخ برامجنا الدراسية؛ وفي اعتقادنا أن الجامعة ستفهم مهمة هذا الكرسى بأوسع معانيها، فتجعل منه بداية حسنة لدراسات مصرية إسلامية شاملة فيما بعد، وسوف يكون لهذه الدراسات أكبر الأثر في إحياء تراثنا الفكرى، وسيكون لها بالأخص أكبر الأثر في التدليل على أهميته وعلى قيمته التي طمسها عصور طويلة من النسيان والنكران

محمد عبد الله عثمان

وفرت العلوم والآداب الإسلامية أمام الغزاة البرابرة من السلاجقة والتتار، نبأت مصر زعامتها الفكرية في المشرق، ولبثت القاهرة بجامعتها الكبرى، ملاذ التفكير الاسلامي، حتى الفتح التركى؛ وفي جميع هذه المراحل كان الأدب المصرى الاسلامي يحتفظ بجميع مميزاته وخواصه في جميع مناحى التفكير، في الشعر والأدب والتاريخ والعلوم والفنون؛ وإذا كان الأدب المصرى قد تأثر في العصور ببعض العوامل الخارجية، سواء من المشرق أو المغرب، فإنه لم يفقد شيئاً من خواصه الجوهرية ولم يفقد بالأخص شيئاً من طابعه المصرى العميق

ويبدو هذا الطابع المصرى الخاص لأدبنا الاسلامي في تراثنا الفكرى بأوضح صورة؛ في الرواية والتاريخ، وفي الشعر والنثر. وفي أساليب التفكير والكتابة، نلص هذه الخاصة ولا سيما في الشخصيات والآثار النموذجية؛ فإنه يصعب مثلاً أن تجد بين شعراء العربية في الأمم الأخرى، شاعراً مثل البهاء زهير، أو ابن نباتة؛ فهذان شاعران مصريان روحاً ومعنى، يمثلان مصر أقوى تمثيل وأصدق، ومن النادر أن تجد بين شعراء العربية من يحمل الرسالة القومية بمثل ما يتجلى في شعرهما من إخلاص وقوة في التعبير عن الروح القومية وكل خواصه ومميزاته؛ كذلك ينفرد الأدب المصرى بنوع من أدب الموسوعة أو (الأدب الانسيكلويدى)، ولدينا من ذلك آثار تعتبر بحق نماذج فريدة مثل نهاية الأدب للتويرى، ومسالك الإبصار للعمرى. وصبح الأعشى للقلقشندي، وهى آثار ليس لها نظائر من حيث تنوعها وطابعها العام، وتخصصها مع ذلك فيما عرضت إليه؛ وانفردت الرواية المصرية الاسلامية أيضاً بمميزات خاصة تستحق أن ندرس على حدة، فألها يرجع الفضل مثلاً في ابتكار فن الخطط والآثار، الذى يقوم على استعراض تاريخ المجتمع والحضارة إلى جانب تاريخ الدول، ونستطيع أن نقول بحق إنه لا يوجد بين آثار الرواية الاسلامية كلها أثر كخطط المقرئى في طرافته وقيمه الاجتماعية والتاريخية؛ وهذه أمثلة قليلة من كثيرة نستطيع أن ندلل بها على ذلك الطابع القومى الخاص الذى يمتاز به أدبنا المصرى الاسلامي على غيره من آداب الأمم الإسلامية الأخرى كذلك يجب ألا ننسى أثر الأزهر في تكوين ذلك الطابع الخاص؛ وقد لبث الأزهر قروناً ملاذ العلوم والأدب في مصر الاسلامية؛ وأثره في تكوين تراثنا الفكرى أعظم من أن نحيط